بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

إنَّ الحمدَ لله نحمدُه، ونستعينُه ونستهديه ونسترشدُه، ونعوذُ بالله من شرورِ أنفسِنا، ومن سَيِّئاتِ أعمالِنا، من يهدِهِ اللهُ فلا مضلَّ له، ومن يُضللْ فلن تجدَ له وليّاً مرشدا، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، نصرَ عبدَه، وأعزَّ جندَه، وهزمَ الأحزابَ وحدَه، لا شيءَ قبلَه ولا شيءَ بعدَه، وأشهدُ أنَّ محمداً رسولُ الله، بلَّغَ الرسالَةَ، وأَدَّى الأمانَةَ، وجمعَ الأمَّةَ على كلمةِ التوحيد.

أما بعد:

فإنَّه من المؤكَّدِ لدى المتتبِّع لسيرةِ العلاَّمةِ الفقيهِ المحدِّثِ المؤرِّخِ الشاعرِ الأديبِ عبدِ القادرِ بنِ بدارنَ ـ رحمه الله تعالى ـ أنَّ عطاءاتِه المثمرةَ، مَعِينٌ لا يَنْضُب، ونهرٌ لا ينقطعُ، وإن لديه همةً عاليةً حالت بينه وبينَ التوقُّف عن العطاءِ، ونفْسَاً رضيَّةً قدَّمَتْ ما تحسَبُ أنه سيكونُ فيه خير كبير لدينِه وأمَّته.

وهذا أثرٌ جديدٌ ـ بعد كلِّ أثرٍ جديدٍ ـ من عطاءاتِهِ المتتاليةِ، وهو ديوانُه الكبيرُ، الذي نقدِّمُهُ لمحبِّيه ومتابعي آثارِه في حُلّةٍ ـ نرجو أن لو رآها العلامةُ ابن بدارنَ لأعجبَتْهُ وراقَتْه ـ.

وقد افتتحَ ـ رحمه الله تعالى ـ ديوانَه هذا بمقدِّمةٍ بليغةٍ، ذكر فيها فضلَ

الشِّعرِ وطرائقَه، وأسبابَ نُزوعِه إليه، ورغبتِه فيه، وبَيَّن حالَه من هَجْرِه للأوطانِ لطلبِ العلمِ في سائرِ البلدانِ، وأنه كانَ في أثناءِ المطالعةِ، وتكرارِ البحث والمراجعةِ، يُرَوِّح نفسَه ببعضِ الأبياتِ، فتارةً يتذكَّر الدِّمَنَ والأطلالَ، وتارةً يكونُ في إحدى الرياضِ بجانبِ العذبِ الزُّلالِ، فَيتَسلَّى ببعضِ الغزليَّاتِ، أو يقتضِي حالُه نظمَ بعضِ المرثياتِ.

وتأسَّفَ لفقدِ أكثرِ شعرِه بعدَ عودتِه من الرحلةِ المغربيَّةِ الشهيرةِ، فراحَ يبحثُ في ذاكرتِه عن بقايا تلكَ الأطلالِ، مما حرَّكَ هِمَّتَهُ لجمعِها؛ لتكونَ له تَذْكاراً وسَميراً على ما مضى من الأحوالِ.

ثم ابتدأ ديوانَه، فقسَّمَه إلى أربعةِ أبوابٍ:

البابُ الأولُ: خَصَّصه لما قاله وهو في دمشقَ الفيحاءِ، وذلك في أثناءِ طلبِهِ للعلمِ، وقد قسَّمَ هذا البابَ إلى خمسةِ فُصولٍ:

الفصلُ الأولُ: في المدائحِ، مفتتِحاً به مدائحَ الرسولِ ﷺ، ثم امتداحَ جملةٍ من شيوخه الذين تلقَّى عنهم العلم: كالشيخ سليمٍ العطارِ، والشيخِ أحمد الشَّطِّيِّ، والشيخِ محمدِ بنِ حسنٍ الشطِّي، والشيخِ محمد بدرِ الدينِ الحسنيِّ، والشيخِ عمرَ العطَّارِ، ثم ثلَّثَ بمدحِ جملةٍ من الأعيانِ: مثلِ عثمان باشا، وغيرِه.

وقد تضمن هذا الفصلُ: اثنتي عشرة مقطوعة، في مئتين وخمسةٍ وأربعين بيتاً.

الفصلُ الثاني: في الفخر والحماسَةِ، ومعظمُه في وصفِ حالِه، وأخلاقِه وشمائلِه، وكثرةِ تَطْلابِه للعلم، وتحريرِه لمعضلاتِه، وذَكَرَ أموراً متعلقةً بالعُزلةِ، والبعدِ عن الناسِ، وتقلُّبات الدهرِ به.

وقد تضمن هذا الفصلُ: ثلاثةَ عشرَ مقطعاً، في اثنين وثمانينَ بيتاً.

الفصلُ الثالثُ: في الغَزَل والتشبيبِ والنسيبِ، وذكر أنَّ هذا الفصلَ كان يمكنُ أن يكونَ قطبَ هذا الديوان لو أنه حَضَر وتذكَّر من قصائده كلَّ ما كان، وذكرَ فيه نمطاً مشهوراً من الغزلِ والتشبيب، وأظهرَ فيه براعةً أدبيةً متألقةً، وتطرقَ إلى كلِّ المعاني الدائرةِ في ذلك، كالسُّكْرِ والصَّحْوِ، والهَجْرِ والصُّدودِ، والوِصالِ والصَّبرِ على البعدِ، والضَّنَى من الافتراقِ، ولم ينسَ الوصفَ الماديَّ لمحبوبه؛ كالجفونِ، واللِّحاظِ، والقُدودِ، والمَبْسَم، وغيرِها، وتفنَّنَ هنا غايةَ التفنُّن.

وقد تضمن هذا الفصل: ثلاثةً وتسعينَ مقطعاً، في ثلاث مئةٍ وتسعةٍ وخمسينَ بيتاً.

الفصلُ الرابعُ: في المراسلاتِ: وذكرَ فيه مراسلاتِهِ معَ بعضِ طلبةِ العلمِ من أصدقائِه بدومةَ، وحلبَ، واللاذقيةِ، وغيرِها.

وقد تضمَّن هذا الفصلُ: عشرةَ مقاطعَ، في ثمانيةٍ وتسعينَ بيتاً.

الفصلُ الخامسُ: في جملةٍ باقيةٍ من الغزلِ والتاريخِ والنصيحةِ والهجاءِ، وبه خَتَم النظمَ الدمشقيِّ، وذكر فيه تأريخاً لبعضِ الحوادثِ، وهجواً لبعضِ الشخصيَّاتِ الهزليَّةِ، ومَدْحاً للعلمِ وأهلِه وفوائدِه، وتقريظاً لبعضِ الرسائلِ العلمية، . . . إلخ.

وقد تضمن هذا الفصلُ: تسعةً وخمسين مقطوعةً، في مئتين وسبعةٍ وسبعين بيتاً.

البابُ الثاني: فيما قالَه في الرحلةِ المغربيَّةِ، وقد افتتحَهُ بقصيدةٍ رائعةٍ أثناء انتظارهم للوابور في مدينة بيروت، والذي سيقلُّهم إلى فرنسا، وافتتحها بقوله:

ما كانَ أسرعَ نَقْضَ الوُدِّ يا أَمَلي إذْ أبطأَتْ في الجوابِ عنهمُ رُسُلِي
أُسائِلُ الريحَ عنهُمْ كُلَّما لَعِبَتْ مِنْها الغُصونُ ومَوْجُ البحرِ كالجَبَلِ

وذكر في هذا الباب صُحبته وصداقاتِه ولقاءاتِه بالأعيان، وما تعرَّضَ له هو ورفاقُه في أثناءِ رحلته من أهوالٍ عِظام في البحرِ وغيرِه، وذكرَ مراسلةً بديعةً لوالدتِه، ورسالةً أخرى أرسلَها إلى «دومةَ» مادحاً لها ولأهلها:

حَيَّا الحَيا «دُوما» البديعةَ إنَّها أضحَتْ جَمَالَ الغُوطَةِ الفَيحاءِ
وَسَمَتْ على المَرْجَيْنِ في عِزٍّ وفي طِيبِ الهواءِ وباليدِ البَيْضَاءِ
بَلَدٌ لَدى الإنصافِ أطيبُ مَوْضِعٍ رَغْماً عَلَى أَنْفِ العَدُوِّ النَّائي
أَكْرِمْ بها من غادةٍ كَمْ أَسْكَرَتْ بِسُلافَةِ النُّدَمَاءِ والخُلَطَاءِ
منْ أينَ للمُدُنِ العظيمةِ ما لَها بالنَّيْرَبَيْنِ ومنْ كَمَالِ بَهَاءِ
مَا «جِلَّقٌ» إلا رياضُ مَحَاسنٍ ومفاخرٍ وَمَكارمٍ وَهَناءِ
هي جنةُ الدنيا ودُرَّةُ تاجِها ومعادِنُ العُلَمَاءِ والأُدَباءِ
هيَ دُرَّةٌ مَا مَسَّها مِنْ فَاسِقٍ إلاَّ أتتْهُ تَواتُرُ الَّلأْواءِ
مَا مَاتَ فيها فاضِلٌ إلا أَتى مِنْ بَعْدِهِ بيتيمةٍ عَذْرَاءِ
أو عَاثَ فيها جاهِلٌ إلا وَقا مَ مَقَامَه أُسْدُ الحِمى بِلِواءِ
مَنْ قَال: إنَّ الغربَ أَحْسَنُ مَوطِناً فلقدْ رآهُ بمُقْلَةٍ عَمياءِ

وقد تضمن هذا الباب ستّاً وعشرينَ مقطوعةً، في مئتين وثلاثٍ وثلاثين بيتاً.

البابُ الثالثُ: فيما قالَه في أثناءِ إقامتِه في «دومةَ»، وفي أثناءِ رواحِهِ إلى غيرِها حَسْبَ التنقُّلِ، وذكرَ فيه كافةَ فُنونِ الشعر: غزلاً، ومَدْحاً، وهجاءً، وحماسةً، وفخراً، وبِكافَّةِ أنواعه: تشطيراً، وتخميساً، وغيرها.

وقد تضمَّن هذا المقطعُ مئةً وإحدى وتسعين مقطوعةً، في ألفٍ وسبع مئةٍ وخمسةٍ وأربعين بيتاً.

[**البابُ الرابعُ**]: السَّوانحُ في المستشفى، وذلك فيما قالَه عَقِبَ مرضِه سنةِ (١٣٤٢هـ)، حيثُ أُدخل «مستشفى الغرباء» بدمشقَ الفيحاءِ، وبقيَ فيه مدةً، وقد أُصيب بفالجٍ في طَرَفِهِ الأيمنِ، مما عطَّل له يدَه اليمنى عن الكتابة، فاستعانَ بيدِه اليسرى، وكتب بها شعراً أودعَهُ خاتمةَ ديوانِه هذا.

وقد تضمَّن هذا البابُ أربعةً وأربعين مقطوعةً، في خمس مئةٍ وستةٍ وثمانين بيتاً[١].

* * *

هذا وقد تمَّ العملُ في تحقيق هذا الديوان على النحو التالي:

١- نسخُ الديوان من المخطوطِ الأصل.

٢- معارضةُ المنسوخِ بالمخطوطِ لإثباتِ صحةِ النسخِ.

٣- تفصيلُ الديوان إلى مقاطعَ شعريةٍ، بلغت أربع مئةٍ وثمانيةً وأربعين مقطعاً، مع ترقيمها.

٤- ضبطُ الديوان بالشكلِ الكاملِ، حتى تَسْهُلَ قراءتُه على قارئِهِ.

٥- التعليقُ على مواطنَ يسيرةٍ منه، مما اقتضى التنبيهُ عليه، وبخاصَّةٍ فيما يتعلقُ بالأمورِ العقائديةِ.

٦- كتابةُ ترجمةٍ لصاحبِ الديوان، مفصَّلَةٍ لحياتِه وآرائِهِ.

٧- صناعةُ فهارسَ شاملةٍ لأعلامِهِ وأماكنِهِ وأبياتِهِ وموضوعاتِهِ.

---

(١) وعليه، فأبيات الديوان كاملة (٣٨٩٥) بيتاً في (٤٤٨) مقطوعة.

هذا وأسألُ الله تعالى أن يتقبل مني عملي هذا، وألاَّ يحرمني ثوابه، وأن يجزي خيراً كل مَنْ أعان عليه، آمين، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

وكتبه

نور الدين طالب

«دومة» الزاهرة

مطلع سنة ١٤٢٧هـ